زيادة النسل أم تحديده ؟

"نشر في مجلة "منبر الإسلام" بمناسبة انعقاد مؤتمر السكان والتنمية" الغرب: لا يسير على منهج واحد في سلوكه لأن أخلاقياته تجعل الأساس الذي يسير عليه هو الكسب المادي والانتفاع بكل شيء في كل زمان وفي كل مكان، ومن هنا وجدنا الغرب يخطط لتحديد النسل في الدول الإسلامية بكل الطرق الممكنة حتى يصل إلى ما يريد، وقد مول الغرب – بالمنح والقروض – مشاريع تحديد النسل في البلاد الإسلامية وفي غيرها من الدول النامية بحجة أن الإكثار من النسل سيؤدي إلى كارثة تعم العالم كله، ووصفوا ما يقولون "بالانفجار السكاني"، وقد أثرت الدعايات الغربية في مثقفينا واقتصادييننا وفي المسئولين أيضا، وسار النظام في هذه الدول على أساس تحديد النسل بكل الطرق الممكنة.

مالتس: صاحب فكرة تحديد النسل هو المفكر الغربي مالتس الذي أنذر العالم بأوخم العواقب إذا ما استمر النسل في الزيادة، ولكن تلاميذه والمفكرين من بعده أثبتوا أن هذه المقولة غير صادقة، ومن هؤلاء أثريونج الذي قال: إذا كانت الحاجة إلى العمالة في عصرنا هذا أكثر من ذي قبل فإن عدد السكان الإجمالي يجب أن يكون أكبر حجما.

آدم سميث: الذي يسمونه في الغرب "أبو علم الاقتصاد" يقول: "إن النمو السكاني سبب من أسباب التقدم الاقتصادي حيث إنه يزيد السوق اتساعا بالإضافة إلى أن زيادة السكان تخلق مجالا لاحتمال زيادة تقسيم العمل"، كما

أن هربرت سبنسر يقول: "إن زيادة السكان تؤدي إلى زيادة الرقي البشري كما تدفع الإنسان دفعا إلى التقدم وهي في الحقيقة أعظم عامل لرقي الإنسان".

في الغرب: وفي دول الغرب نجد أن تشجيع زيادة النسل هو الأسلوب المسيطر على عقول الحكام في الغرب كله بدون استثناء، نعم لقد ساد في الغرب مفهوم المتعة الذي يجعل الإنسان يهدف إليها مهما كانت الظروف حتى ولو أدى الأمر إلى التخلي عن الزواج كليا، وأصبح العمل على زيادة النسل هو أسلوب التقدم في الغرب، بل أصبحوا يعتقدون أن النسل إذا حدد فإنه يتحول إلى نقمة ذات أبعاد سياسية واستراتيجية بالغة الخطورة.

في الدول النامية: ولكنهم مع ذلك ينشرون في كل الدول الإسلامية وغيرها من الدول النامية أن تحديد النسل هو علامة التقدم والمدنية والحضارة.

نمط التنمية: والمشكلة الراهنة الآن بالنسبة للغرب تكمن في نمط التنمية الأوروبي ذي الطابع الاستهلاكي المدمر الذي يتغلغل في التجربة السوفيتية والتجارب المماثلة في أوروبا بصورة متزايدة حتي أصبح نمط الاستهلاك الرأسمالي هو المثل الأعلى للمجتمعات الاشتراكية، وهذا النمط الحضاري أدى إلى العديد من المظاهر والانحرافات ومن ذلك عزوف الإنسان الغربي عن الإنجاب، وقد أصبحت الصفة السائدة في الغرب أن الفائدة الخاصة هي الشعار الذي ينتشر فيها لأنها حضارة المادة فقط حضارة المنفعة الشخصية حضارة الرفاهية بأي أسلوب وتحت أي ظرف. نعم إنها الرفاهية المادية التي لا توصل الإنسان إلى السعادة الحقيقية فالإنسان مكون من جسم وعقل وروح، فإذا أشبع الجسم وأهملت الروح فإن الانفصام يحدث في شخصية الفرد وبذلك

يعاني ما يعاني من الشقاء والمتاعب النفسية ويبتعد عن السعادة الحقيقية شيئا فشيئا حتى يشعر بالغربة بين أهله ووطنه وفي كل مكان يحل به على وجه الأرض.

تشجيع النسل في الغرب: وفي الغرب يشجعون النسل بكل الطرق الممكنة، ففي فرنسا مثلا نجد المؤسسات الصناعية تمنح الأسرة علاوة اجتماعية طبقا لعدد الأطفال الذين تعولهم الأسرة وهذا زيادة على مرتبات العمل.

وفي عام ١٩٢٩م أصبح في فرنسا نظام شامل للسكان بحيث يكون للطفل علاوة وللطفل الثاني علاوة أكبر وهكذا حتى قال الكاتب الفرنسي دافيد جلاس: "إن هذا العمل يعد بمثابة محاولة التعاقد على شراء أطفال نظير دفع الثمن".

وإنجلترا بعد الحرب العالمية الثانية سنت قانونا للعلاوات الاجتماعية التي تمنح للأسر من أجل إنجاب الأطفال، وفي أوائل الخمسينيات أعلنت المجر سياسة تشجيع إنجاب الأطفال بصفة رسمية وسار على هذا المنهج السويد وغيرها، وخطت فرنسا خطة أخرى في هذا الميدان إذا أنها أصدرت تشريعات وإجراءات قضائية وبوليسية واسعة المدى للحيلولة دون عمليات الإجهاض واستخدام موانع الحمل بالإضافة لاعتمادها على نظام العلاوات النقدية الفورية وهي مرتفعة بمقدار ما يضمن زيادة حقيقة كبيرة في دخل الأسرة الكبيرة، وكذلك تقديم قروض للزواج وعلاوات ومنح للإسكان وخفض المصروفات المدرسية إلى جانب إعفاءات مالية لأطفال الأسر الكبيرة.

وإذا نظرنا إلى الاتحاد السوفيتي وجدنا برنامجه أكثر البرامج شمولا فهو يشمل إعانات مالية كبيرة وأوسمة شرف للأمهات اللاتي ينجبن أطفالا كثيرين،

كما أن هناك تشريعات تحرم الإجهاض واستخدام موانع الحمل، والمرأة في الاتحاد السوفيتي تحاط بالضمانات المالية خلال فترات الحمل والولادة وتربية الأطفال، بالإضافة إلى الإعفاءات الضريبية والمكافآت الكبيرة على إنجاب عدد كبير من الأطفال، كما يلاحظ أن الاتحاد السوفيتي يمنح أوسمة وميداليات خاصة في هذا المجال تبدأ من ميدالية الأمومة تمنح للأم التي تنجب خمسة أطفال إلى وسام الأم البطلة التي تمنح للأم التي تنجب عشرة أطفال علاوة على شهادة من مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد العام للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية.

ويحرص المفكرون الغربيون – إلى جانب ذلك – على تحذير شعوبهم من المخاطر التي ستحيط بمجتمعاتهم بسبب عدم نمو السكان لأن ذلك سيؤدي – على حد تعبيرهم – إلى حالة من الركود الاقتصادي، وبالتالي إلى خفض المعيشة.

ثم إن كلا من المعسكرين الأمريكي والروسي يفترض تطوير تقسيم العمل البشري بصورة كبيرة وعلى نطاق واسع لفرز الأعداد الملائمة من العلماء والمثقفين والعاملين والجنود، حيث ثبت أن الأسلحة النووية تغني عن تدعيم وتطوير الجيوش التقليدية – الأمر الذي يجعل الدول الأوروبية تستورد العمال من الخارج – ضمن ضوابط معينة حيث أصبح العمال الأجانب يمثلون جاليات ضخمة كما نرى ذلك في فرنسا وألمانيا وبريطانيا، وذلك يرجع إلى وضع التنمية المفتوحة مهما كان موقفها من الإطار الحضاري، فهذا الوضع يشعر المخططين والحكام بالأهمية الخطيرة لكل مولود جديد. والإنسان الغربي يكتسب عادات متناقضة مع فطرته ومع فطرة الإنسان الطبيعية، فالمواطن هناك يحسب حياته

بالأرقام، ولذلك فإن جوعه اللانهائي واللاإنساني يجعله يرى في كل طفل كارثة أو عائقا عن طريق طموحاته الاستهلاكية.

من هنا نرى أن الغرب يعمل في كل ظروفه وفي جميع دوله على زيادة السكان، ومع ذلك فإنهم يحاولون بكل الطرق أن يخفضوا من عدد سكان العالم الإسلامي، وهم يصابون بالفزع حينما يرون أن العالم الإسلامي يتزايد بصورة كبيرة، بينما أعدادهم في الغرب تتناقص على الرغم من الحوافز المادية والأدبية التي تعطي للأسر ذات الأعداد الكبيرة من الأطفال، لكنهم مع ذلك يدعون إلى تحديد النسل في العالم الإسلامي ويتخذون كل الوسائل المادية الممكنة والمعنوية كذلك ويعملون على إقناع المثقفين والمسئولين بصدق هذه النظرية ويقدمون الهبات والمعونات المادية وأجهزة منع الحمل وما إلى ذلك، ويشجعون ذلك بكل الطرق سواء أكان ذلك في العلن أم في السر.

وفي مصر يأخذ الذين يعملون في التربية السكانية مكافآت عالية ويتاح لهم فرص ركوب الطائرات للسفر إلى كل البلاد بينما زملاؤهم لا يأخذون إلا القليل الذي لا يكفي شيئا ويركبون الدرجة الثانية في القطارات، إن دعوتهم إلى تحديد النسل بيننا تقوم على أساس أننا لا نرقى إليهم بأي حال من الأحوال وأن علينا أن نقلل من خسائر بؤسنا وفقرنا بتحديد نسلنا.

وهذه الوجهة الغربية يحددها الكاتب الغربي "أرجانسكي" حيث يقول: "إن كثافة أوروبا في كل كيلو متر أكبر من كثافة آسيا ولكن الضغط السكاني في أوروبا لا يمثل عقبة في طريق التقدم الاقتصادي أو الاستقرار السياسي"، ويقول بصورة أوضح: "إن الانفجار السكاني هو الذي أمدها بالأيدي العاملة التي أنجزت النظم الاقتصادية والصناعية الحديثة داخل البلاد وزودها بالمهاجرين

الذين خلقوا لأوروبا حلفاءها في الخارج وزودها بالإداريين والجنود الذين ساعدوا على خلق إمبراطوريات مترامية الأطراف تمتد إلى نصف مساحة الكرة الأرضية وتضم ثلث سكانها".

وبعد هذا كله فإننا نلاحظ أننا في حاجة إلى يقظة كاملة حقيقية حتى نعي ما يدبر لنا في السر والعلن على السواء وحتى ننتبه لكل ما يحيط بنا ونحتاط الحيطة الكافية بكل ما أوتينا من قوة حتي نرسم لأنفسنا الأسلوب الذي يجعلنا نسير في الطريق المستقيم صراط الله الذي جاء به محمدﷺ، حينئذ ننقذ أنفسنا مما يراد بنا وننقذ هذا العالم الحائر الذي لا يدري ماذا يراد به؟ ولا ماذا يفعل ليسير في طريق الخير؟، وصدق الله العظيم القائل: "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون" "الأنعام: ١٥٣".